

الكتاب عزّ وشرف.

/ د. وهيبة غراممي

أستاذة محاضرة بقسم علم المكتبات

— جامعة الجزائر —

الملخص:

هذا مقال عام موجه لكافة القراء عموما وينتفع به بشكل خاص طلبة التخصص في علم المكتبات حيث يبين لهم أهمية تخصصهم التي تتبع اساسا من المادة العلمية الاولى وهي الكتاب.

وفي المقال جملة من الاستشهادات من العلماء الفضلاء والفلاسفة والحكماء ، كل منهم يعبر بطريقته عن اهمية الكتاب ومكانته في حياتهم، وكلهم في النهاية متفقون على ان الكتاب عز وشرف لصاحبه، يعود بالنفع عليه وعلى من حوله.

إن للكتاب عز وشرف، ومكانة ورفعة، وعلو وسؤدد، أهميته لا يختلف فيها اثنان، وفضله لا ينكره إنسان، ذكره ممتد عبر العصور والأزمنة ، وفي كل البقاع والأمكنة.

فكثيرا ما تناقل أخباره العامة والخاصة، والعلماء والساسة، بل كان عنوانا لحضارات دون غيرها، وميّز أقواما عن بعضها، فالأمم التي عظمت الكتاب ما زادت إلا تعظيما ، والتي ازدرأته ما زادت إلا تقزيمًا، ولنا في التاريخ عبر وأحداث وسير ، فقد عرف اليونان قوة الحضارة بالكتاب، ومن بعدهم العرب لما أسلموا واتبعوا الكتاب فقامت لهم قائمة لم تكن لها سابقة، فكان جزاءهم أن خلدتهم التاريخ، وأن دخلوه من أبوابه الواسعة، وإن قوما أهانوا الكتاب كالتتار الذين سودوا ماء دجلة والفرات بحبر الكتب حين رموا بها فيه، فظل تاريخهم بذلك السواد ورموا بذلك في مزيلة التاريخ.

فمن أعز الكتاب عز وساد، وأفاد واستفاد وساس به الأمم وقاد، ومن جهل قدره خاب واستكان، وجلب لنفسه الهوان والخذلان على ما بها من جهل وخسران.

ذكره الشعراء في قصائدهم، على اختلاف نحلهم و مللهم وتبدل أزمنتهم وعصورهم، وأيا كان مكان تواجدهم، فكلنا نشأ يحفظ قول المتنبي :

أعز مكان في الدنى سرج سابع وخير جليس في الأنام كتاب⁽¹⁾

وقد قال فيه الحكماء قولاً لا تزل تورثه الأجيال السابقة لمن هي بها لاحقة، وتقنن الأدباء في ذكر فضائله، وتنافس العلماء في حفظه والدعوة إلى الأخذ بعلومه، بل من الجهلة من كان يسعى لجمعه في المستودعات، ويصرف عليه المئات والألوفات حتى ولو لم ينتفع بما فيه من درر ومكنونات.

الكتاب عز وشرف، وهو مقدس أيضاً، إذ جعل الله عز وجل الكتاب اسماً من أسماء قرآنه الكريم، حيث يقول في أولى آيات المصحف الشريف "ذلك الكتاب لا ريب فيه"، واشتق منه للملائكة اسماً في القرآن وصفهم به الرحمان بـ "الكرام الكاتبين".

بل إن بعض الروايات جاء فيها أن: "أول ما خلق الله القلم، ثم قال له اكتب، فجرى به ما يكون حتى يوم القيامة"، و ورد ذكره في كثير من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، كقوله: "إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين".⁽²⁾ والعبرة هنا بعموم لفظ "الكتاب" لا بخصوص السبب "وهو القرآن الكريم".

وذكره لم يكن حكراً على أمة محمد صلى الله عليه وسلم فقد روي في التوراة أن: "يا عبدي: أما تستحي مني، يأتيك كتاب من بعض إخوانك وأنت تمشي في الطريق فتعدل عنه، وتقعّد لأجله، فتقرأه وتتدبره حرفاً حرفاً حتى لا يفوتك منه شيء، وهذا كتابي أنزلته إليك، أنظر كم وصلت لك فيه من القول، وكم كررت عليك لتتأمل طوله وعرضه، ثم أنت معرض عنه، أفكنت عليك أهون من بعض إخوانك"⁽³⁾

أجل الكتاب عز وشرف، و يكفيه عزا وشرفاً أن يكون مضافاً إلى اسم الجلالة تعالت صفاته وتقدسست أسماؤه، فيقال كتاب الله، وكل كتاب غير القرآن

فهو من تأليف الإنسان، أكرم مخلوقات الله، المنفوخ فيه من روح الله ، فنفسه التي بين جنبه لا تزل تتأرجح به حتى تسمو به إلى أعلى عليين، أوتغلب عليه قبضة أديم الأرض فينزل في الأسفلين ، فتكون النتيجة بذلك إما كتاب صالح ينتفع به، أو غير ذلك فيلتفت عنه.

ولتجد صاحب الكتاب نفسه، قد يكتب كتابا اليوم ويرى بعد حين غيره، فقد كتب الأصفهاني بذلك يقول: "أني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابه في يومه إلا قال في غده: لو غير هذا لكان أحسن ، ولو زيد لكان يستحسن ، ولو قدم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل ، وهذا من أعظم العبر ، وهو دليل على استيلاء النقص على معظم البشر".

الكتاب عز وشرف ، لأن فيه شحذ للهمم، ودفع لمزيد من التعلم، إذ يظل الواحد منا يصحح وينقح، ويضيف ويحذف، ويراجع باستمرار ما كتب، بحثا عن الجودة والكمال والحسن والإتقان، من أجل ذلك قالوا أن الكتاب هو الدال على عقل صاحبه، وهذا يحيى بن خالد رحمه الله يقول: " ثلاثة أشياء تدل على عقول أربابها: الكتاب يدل على عقل كاتبه، والرسول يدل على عقل مرسله، والهدية تدل على عقل مهديها: (4)

وذاك أرسطو طاليس يقر بأن: "عقول الرجال تحت سن أقلامهم" ، وآخر يعترف بأن "الأقلام مطايا الفطن" . والشعبي يؤكد ذلك حين سئل يوما: " أي شيء تعرف به عقل الرجل؟ قال : إذا كتب فأجاد." (5)

لذلك اختلفت مراتب الكتب، وتباينت منازلها، من الرديء إلى الجيد، فبات لزاما علينا انتقاء الكتب عند اقتنائها، حتى نلزم أحسنها ، فلا بلن المقفع (6) قول يؤكد فيه على ما يعرف اليوم وفق مصطلحات العصر بمعيار الجودة ، حين قال: " اكتبوا أحسن ما تسمعون، واحفظوا أحسن ما تكتبون وتحديثوا بأحسن ما تكتبون" وبذلك راح أهل العلم يصطادون العلم ليوثقوه بالكتابة، ومنهجهم في ذلك قولهم: "قيدوا العلم بالكتابة" ، ونظم أحدهم شعرا يقول فيه (7)

قيد صيودك بالحبال الوثائقه

العلم صيد والكتابة قيده

فمن الحماسة أن تصيد غزالة وتتركها بين الخلائق طالقة

وكتب آخر معترفا أنه " ما من كتاب إلا وفيه فائدة أو مثل، أو طرفة أو حكاية، أو خاطرة أو نادرة، فالليب من يحسن الانتقاء وينتفع بما اقتناه. ⁽⁸⁾

الكتاب عز وشرف، إذ لا اختلاف بين السلف والخلف على أن له العديد من الفضائل، فهو: قرين الحكمة: وليس هنا أبلغ من كلام الله حين جمع في أكثر من موضع في القرآن بين الكتاب والحكمة إذ يقول: " ويعلمهم الكتاب والحكمة " ⁽⁹⁾ وقرين التزكية أيضا: حين أردفها بالقول السابق في " ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم " ⁽¹⁰⁾

وهو مرادف للعلم: فقد قيل أن: " العلم تارة يكون في الأذهان، وتارة يكون في اللسان، وتارة يكون في الكتابة بالبنان " ⁽¹¹⁾، بل هو المعلم " الذي إن قطعت عنه المادة لم يقطع عنك الفائدة، وإن عزلته لم يدع طاعتك وإن هبت ريح أعاديك لم ينقلب عليك " ⁽¹²⁾

وهو الصديق، فقد قال فيه الجاحظ قولاً بليغاً إذ كتب قائلاً ⁽¹³⁾:

"الكتاب هو الجليس الذي لا يطريك، والصديق الذي لا يغريك، والرفيق الذي لا يملك، والصاحب الذي لا يريد استخراج ما عندك بالملق، ولا يعاملك بالمكر، ولا يخدعك بالنفاق، ولا يحتال لك بالكذب"

ولم يتوقف عند حد الصداقة فحسب، فبعض الناس لهم عشق وولع بالكتاب، تجمعهم به قصص غرام وحكايات حب وهيام، حتى قال أحدهم:

كتابي لا يباع ولا يعار لأن إعارة المحبوب عار. ⁽¹⁴⁾

أما بعضهم من أهل العلم والأدب فقد اتخذوه بديلاً عن الخل والصاحب، وهذا شوقي يقول:

أنا من بدل بالكتب الصحابا لم أجد لي وافيا إلا الكتاب

ومن الناس من جعل أسباب السعادة في العزلة مع الكتاب و الانقطاع إليها، وأن فيها بركة للعمر وسعة في الأجل حتى قال أحدهم ⁽¹⁵⁾ " ما أحسن العزلة مع الكتاب

وفرة للعمر، وفسحة للأجل، وبحبوحة في الخلوة، وسفرا في طاعة، وسياحة في تأمل. ففي العزلة مع الكتاب تجد التأمل والترقب والتفكير والتدبر، التي بها تحرص على المعاني، وتتأمل في المقاصد وتبني صرح الراي وتشيد هيكل العقل."

وقد أنشد أحدهم قائلاً⁽¹⁶⁾:

ما تطعمت لذة العيش حتى صرت للبيت والكتاب جليسا
ليس شيء أعز من العلم فما أبتغي سواء أنيسا
بل أضاف قائلاً:

إنما الذل في مخالطة الناس فدعهم وعش عزيزا رئيسا
إذ وجد في الكتاب بديلا عن مخالطة الناس وما ينجم عنها من عواقب
وتبعات.

وان أقل ما يتفضل به الكتاب على صاحبه، ما جاء منه على لسان الجاحظ⁽¹⁷⁾:
"ولو لم يكن من فضل الكتاب عليك وإحسانه إليك إلا منعه لك من الجلوس
على بابك، والنظر إلى المارة بك مع ما في ذلك من التعرض للحقوق التي تلزم، ومن
فضول النظر، ومن عادة الخوض فيما لا يعنيك، ومن ملابس صغار الناس، وحضور
الفاظهم الساقطة، ومعانيهم الفاسدة، وأخلاقهم الرديئة، وجهالاتهم المذمومة، لكان
في ذلك السلامة ثم الغنيمة، وإحراز الأصل مع استفادة الفرع، ولو لم يكن في ذلك إلا
أنه يشغلك عن سخف المنى، وعن اعتياد الراحة وعن اللعب، وكل ما أشبه اللعب،
لقد كان على صاحبه أسبغ النعمة وأعظم المنة"، فيها يرجى الخير ويتوقى الشر،
حتى أن أحدهم راح يقول: "ذهبت المكارم إلا من الكتب".

والكتاب عز وشرف لأن فيه تجارب الناس و التجارب عقل ثان، تجد فيه
انجاز العظماء، وأدب الأدباء وبلاغة البلغاء، وحكم الحكماء وأفكار العلماء،
وعليه قال الحسن بن وهب⁽¹⁸⁾: "الكاتب نفس واحدة تجزأت في أبدان متفرقة"

فهو يطلق اللسان، ويدرب على الكلام ، ويفتح الأذهان على كل زمان ومكان، فتترسخ الحقائق وتنجلي الأوهام، فتزول بذلك الأحزان وتحلفها المتعة والسلوان.

و يحفظ القلب من التشتت، والعقل من التزمت والوقت من الضياع والتفقت.

وهو أعظم معلم، وأحسن مفهم، فيه من العلوم ما يغني، ومن الأدب ما يشفي، وهو لصاحبه خير ناصح، وبه يكون دوما ناجح.

وليس لنا ونحن نعدد فضائل الكتاب إلا أن نستحضر قول الجاحظ فيه إذ يوصي بالكتاب فيقول: " الكتاب هو الذي إن نظرت فيه أطال إمتاعك، وشحن طباعك، وبسط لسانك، وجود بنانك، وعمر صدرك، ومنحك تعظيم العوام، وصداقة الملوك، وعرفت به في شهر ما لا تعرفه من أفواه الرجال في دهر، مع السلامة من الغرم، ومن كد الطلب، ومجالسة البغضاء." ⁽¹⁹⁾ وبالمقابل فإن "هجر الكتب وترك النظر فيها حُبسة في اللسان ، وحصر للطبع، وركود للخاطر، وفتور للعقل، وموت للطبيعة، وذبول في رصيد المعرفة، وجفاف للفكر،." ⁽²⁰⁾

الكتاب عز وشرف، أجل ، وقد أحبه من أحبه لأن الحياة فيه متعددة وليست واحدة، إذ يقول من قال " أحب الكتاب لأن حياة واحدة لا تكفيني " .

لكن ليس هذا فحسب بل هو للإنسان عمر ثان، وهو امتداد للعمر، فقديما قيل : " كتاب العالم ولدُه المخلد." ⁽²¹⁾

وها هو الإمام النووي ⁽²²⁾ رحمه الله تعالى يتحفنا برائعته حين يقول:

أموت ويبقى كل ما كتبته فيا ليت من يقرأ كتابي دعا لي

لعل الهي أن يمن بلطفه ويرحم تقصيري وسوء فعاليا

إن في هذا وذاك لدلالة على المكانة العالية للكتاب، والمكانة المرموقة التي يحفظها له عارفوه ولا يتنكر لها حتى جاهلوه، إذ لا لوم ولا عتاب على من عاداه، إن كان عذره في ذلك جهله، فالناس أعداء ما يجهلون ، ولئن كان لا يعرف الشوق إلا من يكابده، فكذلك الكتاب لا يعرف قدره إلا من يخالطه.

وقد أحب الكتاب كل من عرفه:

والكتاب قد جمع حوله أناس عدة، فمنهم:

المؤلف أو الكاتب، الذي قيد علمه بالكتاب حفظا من كل ضياع...

ومنهم الناشر، الذي فقه قول الحكماء أن زكاة العلم نشره في الكتب...

ومنهم القارئ، أحد اثنين اللذين لا خير في سواهما : عالم ومتعلم...

ومنهم المكتبي، القائم على شؤون الكتاب، جمعا ومعالجة وبثا لكل باحث ومستفيد...

فبات لهؤلاء جميعا أخلاقا واحدة يجتمعون تحت ظلها ، نذكر أهمها:

تحري الصدق والحقيقة ، " كفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما يسمع " (23)

و الأمانة العلمية في توثيق المراجع ، " فمن أمانة القول أن ينسب إلى قائله "

وحسبنا من القلادة ما أحاط بالعنق، فالصدق والأمانة سيدا الأخلاق، وبهما اتصف نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام.

الكتاب عز وشرف ، فان أقواما سبقونا كانت عندهم الكتابة من أشرف المهن ، مثلما جاء في أشهر مراجع الأدب كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي (24) أن:

" الكتابة هي أشرف المنازل بعد الخلافة "

وكان يضرب بأهلها المثل ، فقد قال بعض المهالبة لولده:

" تزيوا بزي الكتاب، فان فيهم أدب الملوك وتواضع السوقة " (25)

والمكتبيون عبر الزمان والمكان كانوا هم أعلم الناس وأحفظهم للعلم، وأقدرهم على حفظ السر والأمانة،

فقد كانوا من علية القوم، وكانوا يحسبون على الأشراف والفضلاء بل حتى النبلاء، و قدوتهم في ذلك الأنبياء، كيف لا وهؤلاء الكتاب يعدون من العلماء، والعلماء هم ورثة الأنبياء.

ففسانا بهذا نكون قد ذكرنا بعضها وأغفلنا أكثرها ، ولعله يتسع المقام لاحقا للتفصيل فيها، سواء كان ذلك منا أو من غيرنا، فأينما وقع الخير نفع.

لكن الحذر الحذر، فالكتاب ينفع بمحتواه لا بشكله وحجمه وزينة أوراقه وزخرف كلماته، والعلم ليس بكثرة الكتب، ولا بسعة المكتبات، ولو كان الأمر كذلك لكان أعلم الناس هم الأثرياء، الذين بأموالهم يستطيعون ملء مستودعات ما لا يعد ويحصى من الكتب، إنما العلم الحفظ والفهم والاستيعاب ، ولقد قال قائلهم⁽²⁶⁾.

أأشهد بالجهل في مجلس وعلمي في البيت مستودع

إذا لم تكن حافظا واعيا فجمعك للكتب لا ينفع

فالعبرة إذا بالوعي لا بالجمع، " فقيمة المرء ما يحسنه "⁽²⁷⁾ لا ما يجمعه!!!

وما يحسنه المرء ظل معه حيثما حل وارتحل، إن في البيت أو في مجالس العلم، أو بالسوق أو حتى بالحمام، فقد قال الأصمعي وغيره: " كل علم لا يدخل مع صاحبه الحمام فلا تعده علما "⁽²⁸⁾

فالعاقل لا يرضى أن يكون مثله : " كمثل الحمار يحمل أسفارا "⁽²⁹⁾ أي كتباً.

و ليكن منهجنا في ذلك منهج أحد الصالحين، وهو يقول⁽³⁰⁾

علمي معي حيثما كنت يتبعني صدري وعاء له لا بطن صندوق

إن كنت في البيت كان العلم فيه معي أو كنت في السوق كان العلم في السوق

وقول الشافعي في مقالنا هذا مسك الختام، وهو من كبار العلماء، فصفوة

القول أن الكتاب يحوي العلم، والعلم نور، ونور الله لا يهدى لعاص⁽³¹⁾

فبالعلم الذي في الكتاب نكسب العز والشرف، فهلا وَعَيْنَا لماذا الكتاب عز

وشرف؟ .

هوامش المقال :

⁽¹⁾ من شعر أبي الطيب المتنبّي.

- (2) رواه مسلم
- (3) سليمان بن محمد موسلمال. نتعلم كيف نحفظ القرآن روحيا وعلميا. حمص: دار الإرشاد للنشر، 2010. - 216 ص. ص. 34.
- (4) العقد الفريد (170/1) لابن عبد ربه الأندلسي.
- (5) قول للعتابي في العقد الفريد. ص. 227.
- (6) محمد أمين الضناوي. لكل مقام مقال. بيروت: دار المعرفة 2000. ص. 44.
- (7) كتاب العلم / محمد بن صالح العثيمين. الاسكندرية: دار الاتقان، 240 ص. ص. 47.
- (8) عائض القرني. لا تحزن. ص. 122.
- (9) و¹⁰ قرآن كريم.
- (10) تفسير ابن كثير: 528/4.
- (11) تفسير ابن كثير: 528/4.
- (12) عائض القرني. لا تحزن. ص. 123.
- (13) عائض القرني. لا تحزن. ص. 123.
- (14) لكل مقام مقال ص. 108.
- (15) عائض القرني. لا تحزن. ص. 114.
- (16) القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني. في كتاب لا تحزن. ص. 115.
- (17) عائض القرني. لا تحزن. ص. 123.
- (18) العقد الفريد. ص. 248.
- (19) لا تحزن/عائض القرني. ص. 123.
- (20) لا تحزن/عائض القرني. ص. 327.
- (21) محمد مصطفى شعيب. مصدر سابق، ص. 6.
- (22) محمد مصطفى شعيب. مصدر سابق، ص. 6.
- (23) حديث شريف
- (24) العقد الفريد ص. 224.
- (25) العقد الفريد. ص. 225.
- (26) قول لابن بشير الأزدي. في كتاب محمد مصطفى شعيب. المرجع السابق. ص. 34.

(27) قول للإمام علي رضي الله عنه.

(28) محمد مصطفى شعيب. المرجع السابق

(29) قرآن كريم

(30) قول للإمام الشافعي.

(31) من حكم الشافعي